الفصل الأول

الأسلوب الأدبي بيانه وأهميته في القرآن الكريم

قبل الدخول في العملية التحليلية لأسلوب التقديم والتأخير في العمل الأدبي والذي يعتبر المدخل الرئيسي لفهم ذات الأسلوب في القرآن الكريم والذي هو موضوع بحثنا ينبغي أن نقف عند معنى الأسلوب أولاً ، ونحدد مصطلحه ، نظراً لاختلاف التعريفات المطروحة لتحديد معناه ، إذ قد يفهم من عنوان البحث أنه يتجه إلى الدراسة التحليلية لرصد العملية اللغوية الخاصة بالتقديم والتأخير المنبثقة من علمي النحو والبلاغة فحسب ، نعم هذا جانب من جوانب بحثنا الذي لا يقف عند هذا الحد بل ينطلق مع كل إمكانات النص وجوانبه التحليلية لاكتشاف أسلوب التقديم والتأخير في القرآن الكريم ، كما ينبغي ألا نغفل ونحن نحدد المصطلح أننا نتعامل مع نص غير بشري ، بمعنى أننا سوف نلتزم تعريفاً نابعاً من وجهة نظر أدبية لا تتعارض مع الثوابت الدينية ، فبينما نجد أن الأسلوب الذي لا يتعامل مع الكلمات المقدسة يخضع لعوامل تلائم صفات المبدع ، وكذا العوامل المختلفة المؤثرة في إبداعه كالعوامل النفسية والثقافية وتأثير البيئة والمجتمع والعادات والتقاليد واختلاف المواهب . . . إلخ فإننا حتماً سوف نستبعد هذه الأشياء من النص القرآني الذي هو كلام الله الذي ينبغي ألا نتحدث عنه أو نصفه إلا من خلال العقيدة الدينية المستمدة من القرآن والسنة ، حتى لا نصفه بما لا يليق أو ننفي عنه ما يليق به فنحن مع هائز فيلد نرى أنه ليس هناك اتجاهات متخالفة في علم الأسلوب ، فلا ينبغي أن نتحدث عن علم أسلوب جمالي ، وآخر لغوي ، وثالث نفسي ، بل لابد من إدماجها وتكاملها في اتجاه واحد ، قد يكتسب طابعاً لغوياً بالنسبة للمادة المستخدمة في أقصى حالاتها ، ونفسياً بالنسبة للبواعث الدافعة إليه ، وجمالياً بالنظر للشكل الخارجي للقول والتأثير الناجم عنه ، وجميع هذه العناصر حاضرة في النص ، ودراستها يعني التفقه فيها .[1]

---

(١) فصول ، ص ٥٢.

كل هذا نتفق عليه ، ولكن مثلاً بالنسبة للثالث النفسي سوف نتناوله تناولاً يتفق مع العقيدة الإسلامية التي تنفي مماثلة الخالق بالمخلوق كما قال تعالى : ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾(الشورى:١١) فنفس الله ليست كنفس البشر، فمثلاً حين يتحدث القرآن الكريم عن الحالة الجسمية النفسية للمعرضين عن الله في قوله تعالى : ﴿ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي ٱلسَّمَآءِ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ (الأنعام:١٢٥) . هذا الوصف الشعوري لا يجوز أن نصفه في عملية التحليل الأدبي بأنه حالة نفسية أو شعورية لله تبارك وتعالى ، بل هو علم الله التام والمطلق بنفسية من هذه صفته ، ولذا نستطيع أن نقول : إن أنسب مصطلح لتعريف الأسلوب هو تعريف أولريش ليو (إن الأسلوب يعني الكلية المتكاملة الشاملة لكل الكلمات المتفرقة ، التي تتسم بها كيفية التعبير)[1] مع الأخذ في الاعتبار عدم الاقتصار على كيفية التعبير ، بل نضيف للمصطلح كلمة وعما نعبر ، ليكون التعريف على النحو التالي :

(الأسلوب هو الكلية المتكاملة الشاملة لكل الكلمات المتفرقة التي تتسم بها كيفية التعبير وعما يكون التعبير) مع الأخذ في الاعتبار أنني قلت : عمًّا ولم أقل عمَّن التي تختص بالعاقل بل عما التي تعبر عن العاقل وغير العاقل ، وسوف أتناول بالتركيز إبراز التضافر والتضامن بين الجانبين والكشف عن عملية التأثير في أسلوب التقديم والتأخير وكل الأحكام المتعلقة به من علم الإعراب والبلاغة والعقيدة والفقه والتفسير ...... إلخ .

ويعجبني في ذلك أن أذكر ما قاله شتريلكا تعقيباً على تعريف أولريش ليو حيث قال : « ومن البديهي أن النوعية الخاصة لكيفية التعبير ترتبط بالمعبر عنه ، فليس من الممكن أبداً أن نفصل بين كيف نعبر وعما نعبر .... الأسلوب يرتبط بالأبنية الخاصة التي تنشأ عن تفاعل كثير من السمات الأسلوبية المتفرقة للعمل من

---

(١) فصول ، نفس العدد السابق مقال بعنوان : مناهج علم الأدب ليوزف شتريلكا ترجمة مصطفى ماهر ص٧١.

ناحية النحو والإيقاع والبحر ـ هذا الأخير يرتبط بالشعر بطبيعة الحال ـ والصور البلاغية » [(١)]

وإذا كان القرآن الكريم قد نزل بأسلوب العرب وعلى طريقة نظمها في الكلام، فحينئذ لن يستطيع أحد أن يفهم القرآن الكريم، فضلاً عن معرفة وجوه إعجازه في أسلوبه ونظمه إذا لم يكن عالما بل ومتمكناً من أسلوب العرب الأدبي، قال تعالى : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء:١٩٥)

وإذا كان الإنسان بطبيعته البشرية يختلف أسلوبه تبعاً لاختلاف حالاته الذهنية والعاطفية فيتخير كلماته التي تقال في حالة الرضا عن التي تقال في حالة الغضب، فيقدم في مقام ما يؤخره في مقام آخر، ويمهد لمقام ويدخل مباشرة فيما يريده في مقام ثالث ليرتقي ذلك الأسلوب عند الأدباء فيصاغ بأسلوب أدبي، ولكنَّه في الحالة الذهنية والعاطفية لا يخرج عن أسلوب الآخرين في مجمله، فأقدر الناس على التعبير عن العواطف الإنسانية هم أهل الأدب، الذين تميزوا عن الناس بتلك الموهبة التي جعلتهم يصوغون الأحاسيس والأفكار في القوالب الفكرية التي اختاروا لها كلماتهم بعناية فائقة لتكون خير وسيلة لتوصيل ما يريدونه إلى المتلقي، وهنا تأتي مهمة المحللين والنقاد الذين يتناولون الأسلوب، ويقفون عند كل كلمة فيه لإبراز مواطن الإبداع والإخفاق ولم نجد شاعراً واحداً قد أجاد في جميع المعاني التي طرقها ولا الألفاظ التي اختارها، بل نجد أن بعضهم اشتهر وذاع صيته في وصف دون وصف وفي معنى دون آخر وأحسن السبك، وأجاد الوصف في موضع، ولم يحسن ويبدع في موضع، ويكفي أن نطالع كتاب طبقات الشعراء لابن قتيبة، فإنه خير ما كتب في ذلك، فتحت عنوان أقسام الشعر يقول ابن قتيبة :« تدبرت الشعر، فوجدته أربعة أضرب، ضرب منه حسن لفظه وجاد معناه .

كقول القائل في بعض بني أمية :

في كفه خَيْزرانٌ ريحهُ عَبِقٌ   منْ كف أَرْوعَ في عِرْنينه شَمَمُ
يُغضي حَيَاءً وُيغْضَى منْ مهابته   فما يكَلم إلا حين يبتسم [(٢)]

---

(١) فصول، ص٧١.

(٢) طبقات الشعراء ص٢١،٢٢ – ولم ينسبه لقائل ـ وقد وجدته في ديوان الفرزدق وقد قيلت فى علي بن الحسين .

لم يقل في الهيبة شيء أحسن منه .

وكقول أوس بن حجر :

أيتها النفسُ أجملي جَزَعا   إنَّ الذي تحذرين قَد وقعا[1]

لم يبتدئ أحد مرثية أحسن من هذا .

وكقول أبي ذؤيب[2] :

والنفس راغبةٌ إذا رغبتَها   وإذا تُرَدُّ إلى قليل تقنعُ

حدثني الرياشي عن الأصمعي قال هذا أبدع بيت قالته العرب .

وكقول حميد بن ثور[3] :

أرى بصري قد رابني بعد صحة   وحسبُك داءً أن تصحَ وتسلما

ولم يقل في الكبر شيء أحسن منه

وكقول النابغة :[4]

كليني لَهم يا أميمةُ ناصب   وليل أقاسيه بطيء الكواكب

لم يبتدئ أحد من المتقدمين بأحسن منه ولا أغرب .

قال عكرمة بن جرير : قلت لأبي : من أشعر الناس ؟ قال : أجاهلية أم إسلام ؟ قلت جاهلية .

قال زهير : قلت : فالإسلام قال : الفرزدق قلت : فالأخطل قال : الأخطل يجيد نعت الملوك ويصيب صفة الخمر قلت : له فأنت ؟ قال : أنا نحرت الشعر نحراً ،

قال عبد الملك لقوم من الشعراء : أي بيت أمدح ؟

---

(١) طبقات الشعراء ص٢١ ديوان أوس بن حجر.

(٢) ديوان الهذليين ، القسم الأول من ص١-٢١ ، المفضليات ، المفضلية ١٢٦ ص٤١٩-٤٢٩ ، جمهرة أشعار العرب ص٥٣٤ ، المنتخب من محاسن أشعار العرب ج١ ص٢٠٨- ٢٢٠ ، منتهى الطلب من أشعار العرب ج ٩/ ص١٢١ -١٣٦.

(٣) ديوان حميد بن ثور ، ص٢٩ ، الكامل في اللغة والأدب ، ج١ ص١٨٢ ، بهجة المَجالس وأنس المُجالس وشحذ الذاهن والهاجس ، ج٢ ص ٢٣٨

(٤) المصدر السابق ص٢٢ ، وهو في ديوان النابغة الذبياني ، القصيدة الثالثة ، ص ٢٢.

فاتفقوا على بيت زهير

تــراهُ إذا مــا جئتــهُ مُــتَهلّلاً   كأنك تعطيه الذي أنتَ ســائلهُ[1]

وإذا كانت الألفاظ خادمة للمعاني عند كثير من البلاغيين وموضوعة لأجلها ، وأن قيمة الأسلوب إنما تكون بالمعنى المسبوق إليه ، بينما يرى الآخرون أن المعاني مطروحة في الطريق ، يعرفها العام والخاص ، فليس من شك أن الكلام مهما بلغ في غرابة معناه ما بلغ فليس له قدر ولا قيمة إلا بحسن نظم وجودة تركيب وحسن تآلف وتناغم بين الكلمات ، فالنظم هو الذي يفرق بين الأسلوب الأدبي وغير الأدبي ، وكذلك بين الأسلوب الأدبي بعضه بعضاً ، وبه يتم التفاضل بين الأدباء .

قال الجرجاني : « ولقد أطبق العلماء على تعظيم شأن النظم وتفخيم قدره والتنويه بذكره وإجماعهم الأفضل مع عدمه ، ولا قدر لكلام إذا هو لم يستقم له ، ولو بلغ في غراية معناه ما بلغ » [2] .

ولابد في النظم أن يكون خاضعاً لقوانين اللغة وأصولها ومناهجها التي تكتب بها ، وذلك أمر مطرد في كل لغات العالم ، ففي كل لغة من لغات البشر نسق معين في ترتيب الكلام ، يلتزمه الكتاب فيما يكتبونه ، والمتكلمون في أحاديثهم ، ويرتبط بالتسلسل المنطقي والتدرج الذهني ، بحيث يوضع الكلام كما يقتضيه علم النحو في هذه اللغة ،والنظم في اللغة العربية كذلك ، له قوانينه وأصوله ، فلا يجوز أن يخِل بتلك القواعد الموضوعة ، وينبغي لكل ناظم أن ينظر في وجوه كل باب من أبواب الإعراب ويعرف فروقه ، فالنحو هو دعامة اللغة وقانونها الأعلى عليه يرتكز كل علم من علوم العربية ، وهو مفتاح الفهم وأداة البيان ، فهل يفهم كلام الله ويعرف مراده ودقائق تفسيره إلا به ، وهل أعجزهم القرآن إلا بأسلوبه . قال تعالى : ﴿ قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَـٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ (الإسراء:٨٨) وقال تعالى : ﴿ قُلْ فَأْتُوا۟ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِۦ مُفْتَرَيَـٰتٍ ﴾ (هود:١٣) قال تعالى : ﴿ فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ ﴾ (البقرة:٢٣) .

---

(١) ديوان حميد بن ثور ص٢٢ ديوان زهير بن أبي سلمى ص٥٧ .

(٢) دلائل الإعجاز ص٨٠ .

وهل تفهم أحاديث النبي ﷺ وأصول العقائد وأدلة الأحكام وما يتبع ذلك من أمور العقائد وأصول الفقه والدراسات المتنوعة البيانية والأدبية إلا به ولهذا أجمع علماء الإسلام قديماً وحديثاً على أن فهم كتاب الله ومعرفة تفسيره ووجوه إعجازه إنما هي متوقفة على فهم علوم العربية أولاً ، النحو والأدب والصرف والعروض والبلاغة بمباحثها الثلاث ، وأن المجتهد لو أحصى كل علوم الشريعة لا يمكن الوصول إلى رتبة الاجتهاد بدون علوم اللغة العربية ، ولو أردت أن أكتب أسماء العلماء الذين اشترطوا ذلك ، لأضعت الوقت والجهد في إثبات المسلمات ولقللت من شأن البديهيات ، فتعلق الكلم بعضه ببعض إنما هو حكم من أحكام النحو وتفاضل الكلام وحسن اختياره وترتيبه إنما هو حكم من أحكام البلاغة ، ويكفي أن نذكر بعضاً من هؤلاء العلماء الذين حكوا الإجماع على اشتراط ذلك :

قال ابن الأنباري : « إن الأئمة من السلف والخلف أجمعوا قاطبة على أنه شرط في رتبة الاجتهاد ، وأن المجتهد لو جمع كل العلوم لم يبلغ رتبة الاجتهاد حتى يعلم النحو فيعرف به المعاني التي لا سبيل إلى معرفتها بغيره ، فرتبة الاجتهاد متوقفة عليه لا تتم إلا به» .[1]

ويقول عباس حسن عن أهمية النحو : « وسيلة المستعرب ، وسلاح اللغوي ، وعماد البلاغيين ، وأداة المشرع والمجتهد ، والمدخل إلى العلوم العربية والإسلامية جميعاً »[2]

ويؤكد الدكتور عبد العال سالم مكرم على أهمية علم النحو بالنسبة للعلوم العربية بشأن عام فيقول : « ذلك لأن النحو العربي منذ عصر التدوين والتأليف تمت له السيطرة على العلوم الإسلامية جميعاً ، فعلماء الفقه والأصول والتفسير والحديث والفلسفة والتوحيد عالة على الدراسات النحوية واللغوية ، فلا يؤلف كتاب ، ولا تقام نظرية ، ولا تحرر فكرة ، ولا ينشأ بحث إلا على هدي النحو العربي والتعمق فيه يدل على ذلك ما تحدث به ابن قتيبة في كتاب تأويل مشكل

(١) لمع الأدلة في أصول النحو ص٩٥.

(٢) النحو الوافي الجزء الأول ص٢.

القرآن حيث يقول : « للعرب الإعراب ، الذي جعله الله وشياً لكلامها وحلية لنظامها وفارقا في بعض الأحوال بين الكلاميين المتكافئين والمعنيين المختلفين كالفاعل والمفعول ، لا يفرق بينهما ، إذا تساوت حالهما في إمكان الفعل أن يكون لكل واحد منهما إلا بالإعراب ولو أن قائلاً قال :- هذا قاتلٌ أخي - بالتنوين ، وقال آخر ـ هذا قاتلُ أخي ـ بالإضافة لدل بالتنوين على أنه لم يقتله ، ودل حذف التنوين على أنه قد قتله .

.... ولو أن قارئاً قرأ ﴿ فَلَا يَحْزُنكَ قَوْلُهُمْ إِنَّا نَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ (يس:٧٦) وترك طريق الابتداء بأن ، وأعمل القول فيها بالنصب على مذهب من ينصب إن بالقول كما ينصبها بالظن ، لقلب المعنى من جهته ، وأزاله عن طريقته ، وجعل النبي ﷺ محزوناً لقولهم : إن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون وهذا كفر ممن تعمده ، وحرف من اللحن لا تجوز الصلاة به ، ولا يجوز للمؤمنين أن يتجوزوا فيه» .(١)

قال الشيخ محمد أبو زهرة : «اتفق علماء الأصول على ضرورة أن يكون على علم باللغة العربية ، لأن القرآن الذي نزل بهذه الشريعة عربي ، ولأن السنة التي هي بيانه جاءت بلسان عربي مبين ، وقد حد الغزالي القدر الذي يجب معرفته من العربية فقال : « إنه القدر الذي يفهم به خطاب العرب وعادتهم في الاستعمال ، حتى يميز بين صريح الكلام ومجمله وحقيقته ومجازه وعامه وخاصه ومحكمه ومتشابهه ومطلقه ومقيده ونصه وفحواه ولحنه ومفهومه ، وهذا لا يحصل إلا لمن بلغ في اللغة درجة الاجتهاد . . .وأنه على قدر فهم الباحث في الشريعة لأسرار البيان العربي ودقائقه تكون قدرته على استنباط الأحكام من النصوص الفقهية »(٢)

ويذهب الشافعي إلى تحريم الإفتاء لمن لم يكن بصيراً باللغة والشعر .

قال ابن القيم : « قال الشافعي فيما رواه عنه الخطيب في كتاب الفقيه والمتفقه له ـ لا يحل لأحد أن يفتي في دين الله إلا رجلاً عارفاً بكتاب الله ناسخه و منسوخه

---

(١) تطبيقات نحوية وبلاغية الجزء الأول ص٧.

(٢) أصول الفقه ، محمد أبو زهرة ص٣٥٢

ومحكمه ومتشابهه وتأويله وتنـزيله ومكيه ومدنيه وما أريد به ، ويكون بعد ذلك بصيراً بحديث رسول الله ﷺ وبالناسخ والمنسوخ ويعرف من الحديث مثل ما عرف من القرآن ، ويكون بصيراً باللغة بصيراً بالشعر وما يحتاج إليه للسنة والقرآن».[1]

قال الشاطبي في معرض حديثه عن علوم العربية وأهميتها بالنسبة لعلوم الشريعة :

«وأما الثاني من المطالب ، وهو فرض علم ، تتوقف صحة الاجتهاد عليه ، فإن كان ثم علم لا يحصل الاجتهاد في الشريعة إلا بالاجتهاد فيه فهو لابد مضطر إليه لأنه إذا فرض كذلك لم يمكن في العادة الوصول إلى درجة الاجتهاد دونه ، فلابد في تحصيله على تمامه ، وهو ظاهر ، إلا أن هذا العلم مبهم في الجملة»[2]

ولن يستطيع إنسان فهم اللغة العربية والوقوف على أسرارها ومواطن جمالها باقتصاره على علم الإعراب فحسب ، بل لابد أن يغوص إلى عمق النصوص الأدبية ، ويعيش معها ، حتى يتشرب طريقة العرب في أسلوبها الأدبي وكيفية استخدامها للكلمات في حالات التركيب المختلفة ، والتي تدور الكلمة الواحدة ، وتتنقل بين كثير من المعاني التي يحدد السياق واحدة منها أرادها القائل .

يقول الشاطبي : «ولما كان الكتاب والسنة واردين بلغة العرب ، وكانت لهم عادات في الاستعمال بها يتميز صريح الكلام وظاهره ومجمله وحقيقته ومجازه وعامه وخاصه ومحكمه ومتشابهه ونصه وفحواه إلى غير ذلك ، كان لابد لطالب الشريعة من هذين الأصلين ، أن يكون على علم بلسان العرب في مناحي خطابها ، ما تنساق إليه أفهامها في كلامها ، فكان حذق اللغة العربية بهذه الدرجة ركناً من أركان الاجتهاد ، كما تقرر ذلك عند عامة الأصوليين ، وفي مقدمتهم الإمام الشافعي في رسالة الأصول» .[3]

نعم لو كان القرآن الكريم نزل على غير أسلوب العرب وطريقتها في الإفهام لكان الأمر بالإيمان به ضرباً من ضروب العبث ، لأنه يطلب الإيمان

---

(١) إعلام الموقعين عن رب العالمين ، ج١ ص٣٧.

(٢) الموافقات في أصول الشريعة ، ج٢ ينظر من ص٤٩-٥٢.

(٣) المصدر السابق الجزء الأول ص٣.

بما لا يفهم معناه ، وبما لا تبلغه العقول ، نعم قد لا تدرك العقول مفردة في السياق ، ولكن ذلك لا يخل بفهم السياق العام للتركيب والمراد منه ، وقد لا تدرك بعض الأساليب القرآنية عند العوام ، وذلك لا يقدح فيما قلناه ، حيث إن هذه الأساليب هي المتعلقة باستخراج الأحكام الفقهية التي يصل إليها العلماء بوسائل الاجتهاد ، وليست الأساليب المتعلقة بالدعوة للإيمان وأصول الدين وأركان الإيمان والإسلام ، وحول هذا المعنى قال الشيخ محمد عبده : «للتفسير مراتب : أدناها أن يبين بالإجمال ما يشرب القلب عظمة الله وتنزيهه ، ويصرف الناس عن الشر ، ويجذب بها إلى الخير ، وهذه التي قلنا إنها متيسرة لكل أحد ، قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (القمر:١٧) .

وأما المرتبة العليا فهي لا تتم إلا بأمور .

- **أحدها** : فهم حقائق الألفاظ المفردة التي أودعها القرآن ، بحيث يحقق المفسر ذلك من استعمالات أهل اللغة غير مكتف بقول فلان وفهم فلان ، فإن كثيراً من الألفاظ كانت تستعمل في زمن التنزيل لمعان ، ثم غلبت على غيرها بعد ذلك بزمن قريب أو بعيد ، ومن ذلك لفظ التأويل .
- **ثانيها** : الأساليب فينبغي أن يكون عنده من علمها ما يفهم به هذه الأساليب الرفيعة ، وذلك يحصل بممارسة الكلام البليغ ومزاولته مع التفطن لنكته ومحاسنه والوقوف على مراد المتكلم منه ، مع أننا لا نتسامى إلى فهم مراد الله تعالى كله على وجه الكمال والتمام ولكن يمكننا فهم ما نهتدي به بقدر الطاقة ، ويحتاج في هذه إلى علم الإعراب وعلم الأساليب ـ المعاني والبيان ـ»[(١)]

هذه العلوم وإن لم تكن مدونة كفنون في العصر الجاهلي وفي صدر الإسلام ، فإنها كانت معروفة بالسليقة ، لاستقامة لسانهم وعدم دخول العجمى عليهم ، فلم يزل لسانهم صافياً من الكدر ، خالياً من اللحن ، سالماً من التغيير ، ومن ثم كان الجمهور هو راوية الأشعار والحكم عليها ، فبالشعر يتفاخرون ، ويتهاجون ويسجلون مآثرهم ، ويزودون عن أنفسهم ، وتحتفل القبيلة بمولد الشاعر احتفالاً

---

(١) مناهل العرفان في علوم القرآن ،الجزء الثاني ص ٥٢.

عظيماً ، وجاء النبي ﷺ ولم يقلل من شأن الشعر ، بل استمع له وأجاز عليه ، وكان له شعراؤه ، وأثنى على شاعره حسان خيراً ، ولقد كان اهتمام الصحابة ﷺ بالشعر حفظاً ورواية كبيراً ، وما ذاك إلا من أجل تفسير القرآن وبيان معنى ما غمض من ألفاظه بالرجوع إلى نظائرها في الشعر الجاهلي لمعرفة المعنى المعهود عند الجاهليين ، يذكر الشاطبي عن عمر ﷺ في قوله تعالى : ﴿ أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَىٰ تَخَوُّفٍ ﴾ (النحل:٤٧) فإنه سئل عنه على المنبر فقال له رجل من هذيل : التخوف عندنا التنقص ، ثم أنشده الرجل شعراً . . . . .فقال عمر ، أيها الناس تمسكوا بديوان شعركم في جاهليتكم ، فإن فيه تفسير كتابكم» .[١]

ولا يفهم من هذا أبداً أننا قد حكمنا الشعر في القرآن وأرجعناه إليه ، بل غاية الأمر أننا نذكر أن القرآن نزل على معهود العرب وأسلوبها في التخاطب وعلى نحو ما يفهمه العربي من المفردات والتركيب ، كما ذكر السيوطي عن أبي بكر ابن الأنباري حيث قال : « فجاء عن الصحابة والتابعين كثيراً الاحتجاج على غريب القرآن ومشكله بالشعر ، وأنكر جماعة لا علم لهم على النحويين ذلك ، وقالوا : إذا فعلتم ذلك ، جعلتم الشعر أصلاً للقرآن ، قالوا : وكيف يجوز أن يحتج بالشعر على القرآن ، وهو مذموم في القرآن والحديث .

قال : وليس الأمر كما زعموه من أنا جعلنا الشعر أصلاً للقرآن ، بل أردنا تبيين الحرف الغريب من القرآن بالشعر ، لأن الله تعالى قال :﴿ إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ (الزخرف:٣)

وقال : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء:١٩٥) وقال ابن عباس : «الشعر ديوان العرب ، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب ، رجعنا إلى ديوانها ، فالتمسنا معرفة ذلك منه» . ثم أخرج من طريق عكرمة عن ابن عباس قال : « إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب».

وقال أبو عبيد في فضائله ـ الكلام للسيوطي ـ . . . . .عن ابن عباس أنه كان يسأل عن القرآن ، فينشد فيه الشعر . قال أبوعبيد : يعني كان يستشهد به على

(١) الموافقات الجزء الثاني ص٦٧

التفسير قلت : قد روينا عن ابن عباس كثيراً من ذلك ، وأوعب ما رويناه عن مسائل نافع بن الأزرق ، وقد أخرج بعضها ابن الأنباري في كتاب الوقف ، والطبراني في معجمه الكبير ، وقد رأيت أن أسوقها هنا بتمامها ، لتستفاد .

ولقد ذكرها السيوطي ، وأحصيتها ، حيث بلغ عدد الآيات التي ذكرها من مسائل نافع بن الأزرق لابن عباس تسعين ومائة مسألة ، لكل مسألة بيت من الشعر يفسر به ابن عباس المعنى المسئول عنه ، وقد حذف السيوطي منها جزءاً يسيراً نحو بضعة عشر سؤالاً ، وطلباً للاختصار فقد رأيت أن أذكر بعضاً منها :

فقال نافع : أخبرني عن قول الله تعالى : ﴿ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ عِزِينَ ﴾ (المعارج:٣٧) قال العزون : حلق الرفاق قال : وهل تعرف العرب ذلك؟ قال نعم أما سمعت عبيد بن الأبرص وهو يقول :

فجاءوا يُهْرَعُون إليه حتى ... يكونوا حول منبره عزينا[١]

قال : أخبرني عن قوله : ﴿ وَٱبْتَغُوٓاْ إِلَيْهِ ٱلْوَسِيلَةَ ﴾ (المائدة:٣٥) قال : الوسيلة الحاجة ، قال : وهل تعرف العرب ذلك؟ قال : نعم أما سمعت عنترة ، وهو يقول:

إن الرجاَل لهم إليك وسيلة ... إنْ يأخذوك تَكحَلي وتخضَبي[٢]

قال : أخبرني عن قوله : ﴿ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾ (المائدة:٤٨) قال : الشرعة ـ الدين والمنهاج ـ الطريق قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم ، أما سمعت أبا سفيان بن الحارث بن عبد المطلب ، وهو يقول :

لقد نطقَ المأمونُ بالصدق والهدى ... وبَيَنَ للإسلام ديناً ومنهجا[٣]

قال : أخبرني عن قوله : ﴿ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ﴾ (الأنعام:٩٩) قال : نضجه وبلاغه ، قال : وهل تعرف العرب ذلك؟ قال : نعم أما سمعت قول الشاعر :

إذا مَشتْ وسطَ النساء تَأودَت ... كما اهتزَ غصنٌ ناعمُ النبت ميال[٤]

---

(١) لم أعثر على البيت في ديوان عبيد بن الأبرص الشعري ، دار الكتاب العربي شرح أحمد عدرة ١٤١٤ هجرية ١٩٩٤ ميلادية .

(٢) ديوان عنترة ص١٨.

(٣) لم أعثر للحارث على ديوان .

(٤) لم أعثر له على قائل .

قال : أخبرني عن قوله تعالى :﴿ وَرِيشًا ﴾(الأعراف:٢٦) قال : الريش المال قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟

قال : نعم أما سمعت الشاعر يقول :

فرشني بخير طالَ ما قـدْ بـريَتني وخيرُ الموالى مَنْ يريشُ ولا يَبْري .[١]

وعن نفس ذلك المعنى يقول الشاطبي في موضع آخر تحت عنوان النوع الثاني في بيان قصد الشارع في وضع الشريعة للإفهام ، ويتضمن مسائل :

● المسألة الأولى : وإنما البحث المقصود هنا ، أن القرآن نزل بلسان العرب على الجملة ، فطَلَبُ فهمِهِ إنما يكون من هذا الطريق خاصة ، لأن الله تعالى يقول : ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا ﴾ (يوسف:٢) وقال : ﴿ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ﴾ (الشعراء:١٩٥) وقال : ﴿ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾ (النحل:١٠٣) وقال : ﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ قُرْءَانًا أَعْجَمِيًّا لَّقَالُواْ لَوْلَا فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥٓ ءَا۬عْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ ﴾ (فصلت:٤٤) إلى غير ذلك ، مما يدل على أنه عربي وبلسان العرب لا أنه أعجمي وبلسان العجم ، فمن أراد تفهمه ، فمن جهة لسان العرب يفهم ولا سبيل إلى تطلب تفهمه من غير هذه الجهة ، هذا هو المقصود من المسألة . . . . . فإن قلنا : إن القرآن نزل بلسان العرب ، وإنه عربي ، وإنه لا عجمة فيه فبمعنى أنه أنزل على لسان معهود العرب في ألفاظها الخاصة وأساليب معانيها وأنها فيما فطرت عليه من لسانها ، تخاطب بالعام ويراد به ظاهره ، وبالعام يراد به العام في وجه والخاص في وجه ، وبالعام يراد به الخاص ، والظاهر يراد به غير الظاهر ، وكل ذلك يعرف من أول الكلام وأوسطه أو آخره ، وتتكلم بالكلام ، فينبئ أوله عن آخره ، وآخره عن أوله ، وتتكلم بالشيء ، يعرف بالمعنى ، كما يعرف بالإشارة ، وتسمى الشيء الواحد بأشياء كثيرة ، والأشياء الكثيرة باسم واحد ، وكل هذا معروف عندها ، لا ترتاب في شيء منه ، ولا من تعلق بعلم كلامها ، فإذا كان كذلك ، فالقرآن في معانيه وأساليبه على هذا الترتيب .

---

(١) الإتقان ص٢٥٥،٢٥٦.

● المسألة الثانية : للغة العربية من حيث هي ألفاظ دالة على المعانى نظران :

● أحدهما : من جهة كونـها ألفاظاً وعبارات مطلقة دالة على معان مطلقة وهي الدلالة الأصلية .

● الثاني : من جهة كونـها ألفاظاً وعبارات مقيدة دالة على معان خادمة وهي الدلالة التابعة .

فالجهة الأولى . . . . . وأما الجهة الثانية فهي التي يختص بـها لسان العرب في تلك الحكاية وذلك الإخبار ، فإن كان خبراً ، تعين في هذه الجهة أمور خادمة لذلك الإخبار بحسب المخبِر والمخبر عنه ونفس الإخبار في الحال والمساق ونوع الأسلوب من الإيضاح والإخفاء والإيجاز والإطناب وغير ذلك ، وذلك أنك تقول في ابتداء الإخبار ، قام زيد ، إن لم تكن ثَم عناية بالمخَبرِ عنه بل بالخبر فإن كانت العناية بالمخبَر عنه ، قلنا زيد قام ، وفي جواب السؤال أو ما هو منـزل تلك المنـزلة إن زيداً قام ، وفي جواب المنكر لقيامه ، والله إن زيداً قام ، وفي إخبار مَنْ يتَوقع قيامَه أو الإخبار بقيامه ، قد قام زيد ، أو زيد قام ، وفي التنكيت على من ينكر إنما قام زيد ، ثم يتنوع أيضاً بحسب تعظيمه أو تحقيره أعني المخبَر عنه ، وبحسب الكناية عنه ، وبحسب ما يقصد في مساق الإخبار وما يعطيه مقتضى الحال إلى غير ذلك من الأمور التي لا يمكن حصرها ، وجميع ذلك دائر حول الإخبار عن زيد ، فمثل هذه التصرفات التي يختلف معنى الكلام الواحد بحسبـها ، ليست هي المقصود الأصلي ، ولكنها من مهماته ومكملاته ، وبطول الباع في هذا النوع يحسن مساق الكلام ، إذا لم يكن فيه منكَر ، وبـهذا النوع الثاني اختلفت العبارات وكثير من أقاصيص القرآن ، لأنه يأتي مسار القصة في بعض السور على وجه ، وفي بعضها على وجه آخر ، وفي ثالثة على وجه ثالث وهكذا ما تقرر فيه من الإخبارات ، لا بحسب النوع الأول إلا إذا سكت عن بعض التفاصيل في بعض ، ونص عليه في بعض ، وذلك أيضاً لوجه اقتضاه الحال والوقت ﴿ **وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيًّا** ﴾ (مريم:٦٤)[1] وفي معرض الحديث عن شروط الاجتهاد يذكر الشوكاني

---

(١) الموافقات الجزء الثاني ص ٤٩-٥٢.

الشرط الثالث من شروطه فيقول : «أن يكون عالماً بلسان العرب ، بحيث يمكنه تفسير ما ورد في الكتاب والسنة من الغريب ونحوه . . . . وإنما يتمكن من معرفة معانيها وخواص تراكيبها ، ما اشتملت عليه من لطائف المزايا من كان عالمًا بعلم النحو والصرف والمعاني والبيان ، حيث ثبت له في كل فن من هذه ملكة ، يستحضر بها كل ما يحتاج إليه عند وروده عليه ، فإنه عند ذلك ينظر في الدليل نظراً صحيحاً ويستخرج منه الأحكام استخراجاً قويا» .(1)

وإذا كان التقديم والتأخير هو عماد النحو العربي ، بل النحو كله دائر عليه ، وإذا كانت علوم الشريعة كلها لا تفهم إلا من خلال اللسان العربي ومعرفة قواعده وأحكامه ، كما ورد في عبارات الأئمة السابقين ، وقد مر بنا المثال المتقدم الذي ضربه ابن قتيبة في حكم من لحن في القراءة القرآنية ، وأخل بالإعراب ، والذي يصل بكفر قارئه إذا تعمد ذلك ، فهذا مثال آخر ، ذكره الآمدي في معرض حديثه عن الصنف الخامس في أدلة تخصيص العموم ، حيث ذكر تحت هذا الصنف أربع عشرة مسألة ، يقول في المسألة الثالثة عشرة : اللفظ العام إذا عقب بما فيه ضمير عائد إلى بعض العام المتقدم لا إلى كله هل يكون خصوص المتأخر مخصصاً للعام المتقدم بما الضمير عائد إليه أولا ؟

اختلفوا فيه ، فذهب بعض أصحابنا وبعض المعتزلة كالقاضي عبد الجبار وغيره إلى امتناع التخصيص بذلك ، ومنهم من جوزه ، ومنهم من توقف ، كإمام الحرمين وأبي الحسن البصري وذلك كما في قوله تعالى : ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ (البقرة:٢٢٨) فإنه عام في كل الحرائر المطلقات ، بوائن كن ، - والبائن التي تحتاج من أجل الرجوع لزوجها إلى عقد نكاح من جديد - أو رجعيات - التي لا تحتاج إلى عقد نكاح للرجوع إلى زوجها لعدم انتهاء الزوجية بينهما - ثم قال : ﴿ وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ ﴾ (البقرة:٢٢٨) فإن الضمير فيه إنما يرجع إلى الرجعيات دون البوائن ، وعلى هذا النحو(2)

---

(١) إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول ص٢٧٣.

(٢) الإحكام في أصول الأحكام ، الجزء الأول ص ٥٣٢.

وإذا ما عرجنا إلى السيوطي والذي يعتبر بحق من أعظم رائدي الدراسات القرآنية نجده قد عقد فصلاً هاماً في إتقانه ، تحت عنوان : النوع الأربعون في معرفة الأدوات التي يحتاج إليها المفسر ، وأعني بالأدوات الحروف وما شاكلها من الأسماء والأفعال والظروف ، وقد بين في هذا النوع أهمية العلم بأسلوب النظم العربي ، لمن أراد أن يلج باب التفسير ، يقول : « اعلم أن معرفة ذلك من المهمات المطلوبة لاختلاف مواقعها ، ولهذا يختلف الكلام والاستنباط بحسبها ثم ضرب على ذلك أمثلة لاختلاف معاني الحروف ، أذكر منها قوله تعالى : ﴿ فَٱبْعَثُوٓاْ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَٰذِهِۦٓ إِلَى ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَدًا ﴾ (الكهف:١٩) عطف على الجمل الأول بالفاء والأخيرة بالواو ، لما انقطع نظام الترتيب ، لأن التلطف غير مرتب على الإتيان بالطعام ، كما كان الإتيان به مترتباً على التوجه في طلبه ، والتوجه في طلبه مترتباً على قطع الجدال في المسألة عن مدة اللبث وتسليم العلم له تعالى[1]

ولقد سرد السيوطي الحروف كلها مرتبة على حروف المعجم فيذكر للهمزة أموراً ستة اختصت بها ، وضرب لكل معنى مثالاً من القرآن وشرحه ، يقول :

« الهمزة تأتي على وجهين :

● أحدهما الاستفهام ، وحقيقته طلب الإفهام ، وهي أصل أدواته ، ومن ثم اختصت بأمور :

● أحدها : جواز حذفها ، كما سيأتي في النوع السادس والخمسين .

● ثانيها : أنها ترد لطلب التصور والتصديق بخلاف هل ، فإنها للتصديق خاصة وسائر الأدوات للتصور خاصة .

● ثالثها : أنها تدخل على الإثبات ، نحو ﴿ أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا ﴾ (يونس:٢) ﴿ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ ﴾ (الأنعام:١٤٣) وعلى النفي ﴿ أَلَمْ نَشْرَحْ ﴾ (الشرح:١) . وتفيد حينئذ معنيين ، أحدهما التذكير والتنبيه كالمثال المذكور وكقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ ﴾ (الفرقان:٤٥) والآخر التعجب من الأمر العظيم ،

---

(١) الإتقان في علوم القرآن ، المجلد الثاني ص٣٠٩.

كقوله تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُواْ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ﴾ (البقرة:٢٤٣) ، وفي كلا الحالين هي تحذير ، نحو ﴿ أَلَمْ نُهْلِكِ ٱلْأَوَّلِينَ ﴾ (المرسلات:١٦)

رابعها : تقديمها على العاطف ، تنبيهاً على أصالتها في التصدير ، نحو ﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُواْ عَهْدًا ﴾ (البقرة:١٠٠) وسائر أخواتها يتأخر عنه ، كما هو قياس جميع أجزاء الجملة المعطوفة نحو . . ﴿ فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴾ (التكوير:٢٦) [1]

وهكذا يسيرالسيوطي في شرحه لمعاني بقية الحروف ، حتى أنه ذكر لحرف الباء اثنى عشر معنى .

النوع الحادي والأربعون : في معرفة إعرابه .

قال السيوطي : « أفرده بالتصنيف خلائق ، منهم مكي ، وكتابه في المشكل خاصة والحوفي وهو أوضحها ، أبو البقاء العكبري وهو أشهرها ، والسمين وهو أجلها على ما فيه من حشو وتطويل ، ولخصه السفاقسي ، فحرره ، وتفسير أبي حيان مشحون بذلك ، ومن فوائد هذا النوع معرفة المعنى ، لأن الإعراب يميز المعاني ، ويوقف على أغراض المتكلمين » . [2]

ولا يفهم من كلام السيوطي أن الإعراب هو الحكم على المعاني بإطلاق ، وأنها خاضعة له ، بحيث يفهم المعنى دائماً على وجه الإعراب الظاهر ، فليس هذا بصحيح ، بل يختلف المعنى تبعاً لاختلاف التركيب ، فقد يوجب المعنى أن يلتفت في الإعراب لوجه غير ظاهر بعيداً عن الوجه الظاهر ، وإلا فسد المعنى ، وأفهم غير المراد ، وذلك أمر صحيح ، حيث اتفق علماء العربية قديماً وحديثاً على أن الإعراب فرع المعنى ، وأنه يجب أن يفهم المعنى أولا حتى يفهم الإعراب ثانياً وأن صحة الإعراب وفساده مترتب على صحة المعنى وفساده ، وقد ذكر السيوطي عن ابن هشام قوله : « وقد زلت أقدام كثير من المعربين راعوا في الإعراب ظاهر اللفظ ، ولم ينظروا في موجب المعنى ، من ذلك قوله : ﴿ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِيٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُاْ ﴾ (هود:٨٧) .

---

(١) الإتقان المجلد الأول ص٣٠٩ ، ٣١٠

(٢) المصدر السابق ص٣٨٢.

فإنه يتبادر إلى الذهن عطف أن نفعل على أن نترك ، وذلك باطل لأنه لم يأمرهم أن يفعلوا في أموالهم ما يشاءون ، وإنما هو عطف على ما ، فهو معمول للترك والمعنى : أن نترك أن نفعل ، وموجب الوهم المذكور أن المعرب يرى أن والفعل مرتين وبينهما حرف العطف .[1]

وإنما أقصد بالمعنى المشار إليه آنفاً المعنى الذي تستحقه ألفاظ القرآن من الدلالة والبيان أي المعنى الصحيح المستفاد من النص ، والذي التزم فيه المفسر بالقراءة المتواترة وبشروط التفسير وآدابه ، وأنبه على ذلك ، لأنه ضل قوم في تفسير القرآن الكريم سابقاً ولاحقاً ، إما لعدم التمكن من أدوات التفسير واستكمال شروطه وإما لتعصب مذهبي ألجأ المفسر أن يفسر الآيات على حسب ما يقتضيه المذهب انتصاراً لمذهبه ودعماً لرأيه ، وليس كما يقتضيه النص القرآني .

وقد نقل الزرقاني عن إمام القراء أبي عمرو الداني معنى ما ذكرت آنفاً قال : « وأئمة القراء لا تعتمد في شيء من حروف القرآن على الأفشى في اللغة والأقيس في العربية بل على الأثبت في الأثر والأصح في النقل ، والرواية إذا ثبتت عندهم لا يردها قياس عربية ولا فشو لغة ، لأن القراءة سنة متبعة يلزم قبولها والمصير إليها » قلت :- الكلام للزرقاني - وهذا كلام وجيه فإن علماء النحو إنما استمدوا قواعده من كتاب الله تعالى وكلام رسوله وكلام العرب ، فإذا ثبتت قرآنية القرآن بالرواية المقبولة كان القرآن هو الحكم على علماء النحو وما قعّدوا من قواعد ، وجب أن يرجعوا هم بقواعدهم إليه ، لا أن نرجع نحن بالقرآن إلى قواعدهم المخالفة نحكمها فيه ، وإلا كان ذلك عكساً للآية وإهمالاً للنص في وجوب الرعاية »[2]

يقول السيوطي : « وعلى الناظر في كتاب الله تعالى الكاشف عن أسراره النظر في الكلمة أو صيغتها ومحلها ، ككونها مبتدأ ، أو خبرًا أو فاعلاً أو مفعولاً أو في مبادئ الكلام أو في جواب أو غير ذلك ، ويجب عليه مراعاة أمور .

---

(١) الإتقان الجزء الثالث ص٣٨٣.

(٢) مناهل العرفان ج١ ص٤٢٠.

● **أحدها** : وهو أول واجب عليه ، أن يفهم معنى ما يريد أن يعربه مفرداً أو مركباً قبل الإعراب ، فإنه فرع المعنى ، ولهذا لا يجوز إعراب فواتح السور ، إذا قلنا بأنها من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه . . . وقوله : ﴿ سَبْعًا مِّنَ ٱلْمَثَانِي ﴾ (الحجر:٨٧) إن كان المراد بالمثاني القرآن ، فمن للتبعيض ، أو الفاتحة ، فلبيان الجنس ، وقوله : ﴿ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنْهُمْ تُقَىٰةً ﴾ (آل عمران:٢٨) إن كان بمعنى الاتقاء ، فهي مصدر ، أو بمعنى متقى : أى أمر يجب اتقاؤه فمفعول به ، أو جمعاً كرماة ، فحال وقوله : ﴿ غُثَآءً أَحْوَىٰ ﴾ (الأعلى:٥) إن أريد به الأسود من الجفاف واليبس فهو صفة لغثاء ، أو شدة الخضرة فهو حال من المرعى .

● **الثاني** : أن يراعي ما تقتضيه الصناعة ، فربما راعى المعرب وجهاً صحيحاً ولا نظر في صحته في الصناعة ، فيخطئ من ذلك قول بعضهم في قوله تعالى : ﴿ وَثَمُودَاْ فَمَآ أَبْقَىٰ ﴾ (النجم:٥١) أن ثمود مفعول مقدم ، وهذا ممتنع لأن لما النافية الصدر فلا يعمل ما بعدها فيما قبلها ، بل هو معطوف على عاد ، أو على تقدير : وأهلك ثمودا .

● **الثالث** : أن يكون ملماً بالعربية ، لئلا يخَرِّج على ما لـمْ يَثْبت . . . . وكقول ابن مهران في قراءة ﴿ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا ﴾ (البقرة:٧٠) بتشديد التاء أنه من زيادة التاء في أول الماضي ، ولاحقيقة لهذه القاعدة ، وإنما أصل القراءة إن البقرة تشابهت بتاء الوحدة ، ثم أدغمت في تاء تشابهت فهو إدغام من كلمتين .

● **الرابع** : أن يراعى في كل تركيب ما يشاكله ، فربما خرج كلاماً على شيء ، ويشهد استعمال آخر في نظير ذلك الموضع بخلافه ، . . . . ومن قال في نحو ﴿ وَمَا رَبُّكَ بِغَٰفِلٍ ﴾ (الأنعام:١٣٢) إن المجرور في موضع نصب ، لأن الخبر لم يجئ في التنزيل مجرداً من الباء إلا وهو منصوب ، ومن قال في ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ﴾ (الزخرف:٨٧) إن الاسم الكريم مبتدأ ، والصواب أنه فاعل ، بدليل ﴿ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ ﴾ (الزخرف:٩) ، قد ذكر السيوطي مجموعة من القواعد الهامة التي يحتاج إليها المفسر تحت عنوان :

{النوع الثاني والأربعون في قواعد مهمة يحتاج المفسر إلى معرفتها}

أذكر منها القاعدة الأولى لتعلقها بموضوع رسالتنا ، وسوف ألقي عليها مزيداً من الإيضاح عند الحديث عنها في الفصل الثالث { ضوابط التقديم والتأخير في النحو العربي }

قاعدة في الضمائر : ألف ابن الأنباري في بيان الضمائر الواقعة في القرآن مجلدين وأصل وضع الضمير للاختصار ، ولهذا قام قوله : ﴿ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (الأحزاب:٣٥) مقام خمس وعشرين كلمة لو أتى بها مظهرة .

وكذا قوله تعالى : ﴿ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ ﴾ (النور:٣١)، ومن ثم لا يعدل إلى المنفصل إلا بعد تعذر المتصل ، بأن يقع في ابتداء نحو : ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ ﴾ (الفاتحة:٥) أو بعد إلا نحو ﴿ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ ﴾ (يوسف:٤٠) .

مرجع الضميرلا بد له من مرجع يعود إليه ، ويكون ملفوظاً به سابقاً مطابقاً نحو ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ ﴾ (هود:٤٢) ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ ﴾ (طه:١٢١) ﴿ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا ﴾ (النور:٤٠) أو متضمناً له نحو ﴿ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ (المائدة:٨) فإنه عائد على العدل المتضمن له اعدلوا : أي المقسوم لدلالة القسمة عليه ، قال مكي : « ليس في كتاب الله آية اشتملت على ﴿ وَإِذَا حَضَرَ ٱلْقِسْمَةَ أُوْلُواْ ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينُ فَٱرْزُقُوهُم مِّنْهُ ﴾ (النساء:٨) ضمائر أكثر منها ، فإن فيها خمسة وعشرين ضميراً ، أو دالاً عليه بالالتزام نحو ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ ﴾ (يوسف:٢) أي القرآن لأن الإنزال يدل عليه التزاماً ﴿ فَمَنْ عُفِيَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَٰنٍ ﴾ (البقرة:١٧٨) فعفي يستلزم عافياً ، أعيد عليه الهاء من إليه ، أو متأخراً لفظاً لا رتبة مطابقاً ، نحو ﴿ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ﴾(طه :٦٧) ﴿ وَلَا يُسْـَٔلُ عَن ذُنُوبِهِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴾(القصص:٧٨) ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُسْـَٔلُ عَن ذَنۢبِهِۦٓ إِنسٌ وَلَا جَآنٌّ ﴾ (الرحمن:٣٩) أو رتبة أيضا في باب ضمير الشأن والقصة ونعم وبئس والتنازع ، أو متأخرًا دالاً بالالتزام نحو ﴿ فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴾ (الواقعة:٨٣) ؛ ﴿ كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ ﴾ (القيامة:٢٦) ضمير الروح أو النفس لدلالة الحلقوم والتراقي عليها ؛ ﴿ حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ ﴾ (ص:٣٢) ؛ أي الشمس لدلالة الحجاب عليها وقد يدل عليه السياق فيضمر ثقة بفهم السامع ؛

﴿ كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴾ (الرحمن:٢٦) ﴿ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا ﴾ (فاطر:٤٥) أي الأرض والدنيا . . .

وقد يعود على لفظ المذكور دون معناه ، نحو ﴿ وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ ﴾ (فاطر:١١) أي عمر معمر آخر ، وقد يعود على بعض ما تقدم نحو ﴿ يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِيٓ أَوْلَٰدِكُمْ ﴾ (النساء:١١) إلى قوله : ﴿ فَإِن كُنَّ نِسَآءً ﴾ (النساء:١١) وقد يعود على المعنى ، كقوله في آية الكلالة ﴿ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ ﴾ (النساء:١٧٦) ولم يتقدم لفظ مثنى يعود عليه ، وقد يعود على لفظ شيء والمراد به الجنس من ذلك الشيء .

قال الزمخشري : « كقوله تعالى : ﴿ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَٱللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ﴾ (النساء:١٣٥) أي بجنسي الفقير والغني لدلالة غنياً أو فقيراً على الجنسين ، ولو رجع إلى المتكلم به لوحده ، وقد يذكر شيئان ، ويعاد الضمير إلى أحدهما ، والغالب كونه الثاني نحو ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ ﴾ (البقرة:٤٥) فأعيد الضمير للصلاة ، وقيل للاستعانة المفهومة من ﴿ وَٱسْتَعِينُواْ ﴾ .

قاعدة : الأصل عوده على أقرب مذكور ، ومن ثم أخر المفعول الأول في قوله : ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ﴾ (الأنعام:١١٢)

ليعود الضمير إليه لقربه ، إلا أن يكون مضافًا ومضافًا إليه ، فالأصل عوده للمضاف لأنه المحدث عنه نحو ﴿ وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ ﴾ (النحل:١٨) وقد يعود إلى المضاف إليه ، نحو ﴿ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُۥ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ (القصص:٣٨) واختلف في ﴿ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ ﴾ (الأنعام:١٤٥) فمنهم من أعاده إلى المضاف ، ومنهم من أعاده إلى المضاف إليه .[1]

وكمثل ما ذكره السيوطي عن ابن هشام عن خطأ المعربين الذين راعوا في الإعراب ظاهر اللفظ ، ولم ينظروا في موجب المعنى ، نجد أيضاً بعض الشعراء الذين راعوا في شعرهم صحة الإعراب ، ولم يلتفتوا إلى ما يلحق المعنى من

---

(١) الإتقان ، الجزء الأول ص٣٩٧-٣٩٩.

تعقيد ذهني بعيداً عن مخاطبة الشعور ، لا أقول إلى مخاطبة الفكر بل إلى عناء الفكر وكأن المتلقي أمام معضلة ينبغي عليه أن يحلها ، وهذا ما سوف نذكره تحت عنوان { **أثر التقديم والتأخير في الإخلال بفصاحة الكلام** } .

ولكن ما نريد أن نؤكد عليه أن المزية أو العيب لا ترجع للكلمة نفسها ، بل في التركيب التي أوجدت فيه ، فاللفظ الواحد قد يقع مقبولاً أو مكروهاً .

يقول الجرجاني : « ومما يشهد لذلك ، أنك ترى الكلمة تروقك ، وتؤنسك في موضع ثم تراها بعينها تثقل عليك ، وتوحشك في موضع آخر ،كلفظ الأخدع في بيت الحماسة التالي :

تلفتُ نحوَ الحي حتى وجدتَني وجعتُ من الإصغاء ليتاً وأخدعا[1]

الليت هو صفحة العنق ، والأخدع عرق في العنق .

وبيت البحتري :

إني وإن بلغتَني شرفَ الغنى وأعتقتَ من رق المطامع أخدعي[2]

فإن لها في هذين المكانين ما لا يخفى من الحسن ، ثم إنك تتأملها في بيت أبي تمام :

يا دهرُ قوم منْ أخدعيك فقدْ أضججتَ هذا الأنامَ من خُرُقك[3]

فتجد لها من الثقل على النفس ومن التنغيص والتكدير أضعاف ما ودت هناك من الروح والخفة ، ثم يذكر الجرجاني أمثلة أخرى لكلمة شيء ويعقب قائلاً :

« وهذا باب واسع ، فإنك تجد ، متى شئت الرجلين ، قد استعملا كلماً بأعيانها ، ثم ترى هذا قد فرِع السماك ـ نجم ـ ، وترى ذلك ، قد لصق بالحضيض ، فلو كانت الكلمة حسنت من حيث هي لفظ ، وإذا استحقت المزية والشرف ، استحقت ذلك في ذاتها وعلى انفرادها ، دون أن يكون السبب في ذلك حال لها مع

---

(١) الصمة بن عبد الله القشيري ، شرح حماسة أبي تمام للتبريزي .

(٢) ديوان البحتري ، ص٩٠

(٣) ديوان أبي تمام الشعري ص١٩٨.

أخواتها المجاورة لها في النظم ، لما اختلف بها الحال ، ولكانت إما أن تحسن أبداً ، أو لا تحسن أبداً»[1]

وقد يأتي الشاعر بالمعنى المطروح المطروق ، ولكن بحسن تركيبه وبراعة تأليفه يضيف عليه جمالاً واستحساناً .

ومن ذلك قول الشاعر :

ولمّا قضينا من منى كُلَّ حاجة ... ومَسَّح بالأركان مَنْ هو ماسحُ
وشُدَّت على دُهْم المهارىَ رحالُنا ... ولم ينظُرْ الغادي الذي هو رائحُ
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا ... وسالت بأعناق المطي الأباطحُ[2]

فنحن إذا فتشنا في المعنى ، لم نجد شيئاً جديداً ، وإنما هو جمال أسلوب وحسن ترتيب وكان حسن اختيار الشاعر لألفاظه أكبر الأثر في إضفاء جوّ من الجمال النفسي الحسي على القصيدة ، وخاصة كلمة سالت والتي أشعرتني وولّدت في إحساسي شعوراً فياضاً لا أشك أن المتلقي لن يخالفني الرأي فيه ، وهو ذلك الجو النفسي الذي جعلنا الشاعر نعيشه معه رغماً عنا ، ألا وهي كلمة سالت والتي كانت رمزاً لعدة أمور في القصيدة : عذوبة الحديث وحلاوته ، فلم يشعروا بالمطي وهي تسير ، كذلك عدم الشعور بطول الوقت حيث إن كلمة سال توحي بالسرعة كذلك ما تخلقه هذه الكلمة من أثر نفسي ، يشعر بالاطمئنان ، حيث تأتي كلمة السيولة وهي من صفة الماء في ذلك الجو الصحراوي لتعطي مزيداً من الراحة ، كما أن تقديم الشاعر لكلمة بأعناق المطي والتي هي في الحقيقة مفعول به للفعل سال جعلت المتلقي يشعر بالتشوق لمعرفة بأي شيء سالت أعناق المطي .

ويعلق الجرجاني على هذه الأبيات بقوله : « ثم راجع فكرتك ، واشحذ بصيرتك ، وأحسن التأمل ، ودع عنك التجوز في الرأي ، ثم انظر ، هل تجد لاستحسانهم وحمدهم وثنائهم ومدحهم منصرفاً إلا إلى استعارة وقعت موقعها ،

---

(١) دلائل الإعجاز ص٤٦-٤٨.

(٢) لم ينسب البيت لقائل وقد وجدته لكعب بن زهير : كعب بن زهير حياته وشعره ص١٤٤،١٤٣ .

وأصابت غرضها ، أو حسن ترتيب تكامل معه البيان ، حتى وصل معه المعنى إلى القلب مع وصول اللفظ إلى السمع واستقر في الفهم مع وقوع العبارة في الأذن ؟ وإلا إلى سلامة الكلام من الحشو غير المفيد والفضل الذي هو كالزيادة في التحديد وشيء داخَلَ المعاني المقصودة مداخلة الطفيلي الذي يستثقل مكانه ، والأجنبي الذي يكره حضوره ، وسلامته من التقصير الذي يفتقر معه السامع إلى تطلب زيادة بقيت في نفس المتكلم ؟ فلم يدل عليها بلفظها الخاص بها ....

وذلك أن أول ما يتلقاك من محاسن هذا الشعر أنه قال : ولما قضينا من منى كل حاجة ، فعبر عن قضاء المناسك بأجمعها ، والخروج من فروضها وسننها من طرق أمكنه ، أن يقصر معه اللفظ ، وهو طرقة العموم ثم بقوله ومسح بالأركان من هو ماسح على طواف الوداع الذي هو آخر الأمر . ودليل المسير الذي هو مقصوده من الشعر ثم قال : أخذنا بأطراف الحديث بيننا فوصل بذكر مسح الأركان ، ما وليه من زم ـ شد ـ الركاب وركوب الركبان ، ثم دل بلفظة أطراف على الصفة التي يختص بها الرفاق في السفن ، من التصرف في فنون القول وشجون الحديث ـ أصنافه وأنواعه ـ أو ما هو عادة المتطرفين ـ الذين هم في الأطراف من الإشارة والتلويح والرمز والإيماء وأنبأ بذلك عن طيب النفوس وقوة النشاط وفضل الاغتباط ،كما توحيه ألفة الأصحاب وأنسة الأحباب ، وكما يليق بحال من وفق لقضاء العبادة الشريفة ورجاء حسن الإياب وتنسم أرواح المحبة والأوطان ، واستماع التهاني والتحايا من الخلان والإخوان ، ثم زان ذلك كله باستعارة لطيفة ، طبق فيها مفصل التشبيه وأفاد كثيراً من لطف الفوائد بلطف الوحي ـ أي الإيحاء بالإشارة ـ والتنبيه ، فصرح أولاً بما أومأ إليه بالأخذ بأطراف الحديث ، من أنهم تنازعوا أحاديثهم على ظهور الرواحل ، وفي حال التوجه إلى المنازل وأخبر بعد بسرعة المسير ، ووطاءة الظهر إذ جعل سلامة سيرها بهم كالماء تسيل به الأباطح ـ جمع بطحاء وهي مسيل فيه دقاق الحصى ـ وكان في ذلك يؤكد ما قبله ، لأن الظهور إذا كانت وطيئة ، ـ سهلة الانقياد ـ وكان سيرها السير السهل السريع ، زاد

ذلك في نشاط الركبان ، ومع ازدياد النشاط يزداد الحديث طيباً ، ثم قال : بأعناق المطي ولم يقل بالمطي ، لأن السرعة والبطء يظهران غالباً في أعناقهما ويبين أمرها من هواديها ـ أعناقها ـ وصدورها وسائر أجزائها تستند إليها في الحركة ، وتتبعها في الثقل والخفة ، ويعبر عن المرح والنشاط إذا كان في أنفسها بأفاعيل خاصة في العنق والرأس ، ويدل عليها بشمائل مخصوصة في المقاديم ـ مقاديم الشيء ما استقبلت منه ـ فقل الآن هل بقيت عليك حسنة تحيل فيها على لفظة من ألفاظها ، حتى إن فضل الحسنة يبقى لتلك اللفظة ولو ذكرت على الانفراد ، وأزيلت عن موقعها من نظم الشاعر ونسجه وتأليفه ورصفه ، وحتى تكون في ذلك كالجوهرة التي هي وإن ازدادت حسناً بمصاحبة أخواتها ، واكتسبت رونقاً بمضامة أترابها ـ بانضمام أشباهها ـ ، فإنها إذا جليت للعين فردة ، وتركت في الخيط فذة ، لم تعدم الفضيلة الذاتية ، والبهجة التي في ذاتها مطوية .[1]

(١) أسرار البلاغة في علم البيان ، ص٣٥-٣٨.